جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

٢١ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ
٢٨ ديسمبر ٢٠١٨م

(١)

حاجتنا إلى الدين وضرورة محاسبة النفس (*)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد :

فإن الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} ، ويقول سبحانه : {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، ويقول (عز وجل) في الحديث القدسي : (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا).

ولقد أرسل الله (عز وجل) الأنبياء والمرسلين بالشرائع التي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأخيه الإنسان ، وعلاقته بالكون كله ؛ ليتحقق في الأرض الحق والعدل ، حيث يقول تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

---

*) الخطبة مأخوذة من مقالين لمعالي وزير الأوقاف هما : حاجتنا إلى الدين ، ومحاسبة النفس .

وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيه داود (عليه السلام) : {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

ومما لا شك فيه أن الشرائع السماوية كلها قد جاءت لتحقق السعادة للبشرية جمعاء ، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) : {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} .

والمتدبر لكتاب الله (عز وجل) لا يخفى عليه أن رسالات الأنبياء والرسل غايتها هداية الخلق ، وإقامة الحق والعدل ، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق ، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة ، فها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه : {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) يقول لقومه : {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}.

وعندما نقف مع الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين ؛ الأولى : في قوله تعالى : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أما الركيزة الثانية : فهي الأعم وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ).

فلا خلاف أن الشرائع السماوية كلها قد أجمعت على ما فيه خير البشرية ، وما يؤدي إلى سلامة النفس والمال والعرض ، وقيم : العدل ، والمساواة ، والصدق ، والأمانة ، والحلم ، والصفح ، وحفظ العهود ، وصلة الأرحام ، وحق الجوار ، وبر الوالدين، وحرمة مال اليتيم، وهي كلها مبادئ إنسانية عامة ، لم تختلف عليها الشرائع السماوية ، ولم تنسخ في أي شريعة منها ، حيث يقول الحق سبحانه : {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وقد ذكر سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أن هذه الآيات آيات محكمات لم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع .

فالدين الحقيقيّ الذي شرعه الله (عزّ وجلّ) لعباده ميزانٌ قويمٌ لضبط سلوك الإنسان ، وقيمه ، وأخلاقه ، وحسن مراقبته لله (عزّ وجلّ) ، ليس في عباداته التي يتوجه بها إلى الله (عزّ وجلّ) فحسب ؛ بل في سائر حركاته وسكناته ، سرّه وعلنه ، رضاه وغضبه ، عمله وعلاقاته ، وسائر تصرفاته ، وهو صمام أمان للبشرية جمعاء ؛ لذا فإن الدين فن صناعة الحياة ، وعمارة الكون ، وهو الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله (عز وجل) للبشرية ، حيث يقول سبحانه : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

أما الإلحاد والخروج على منهج الله وفطرته التي فطر الناس عليها فله مفاسد وشرور لا تُحصى ولا تُعد على الفرد والمجتمع ، والأمم والشعوب ، منها : اختلال القيم ، وانتشار الجريمة ، وتفكك الأسرة والمجتمع ، والفراغ الروحي ، والاضطراب النفسي ، وتفشى ظواهر خطيرة كالانتحار ، والشذوذ ، والاكتئاب النفسي .

فالسير في طريق الإلحاد والضلال مُدمّر لصاحبه ، مُهلِك له في دنياه وآخرته ، فواقع الملحدين مُرّ ، مليء بالأمراض والعقد النفسية ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} ، ويقول سبحانه : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} .

الدينُ الحقيقي ليس جزءا من مشاكل واقعنا المعاصر ، ولا يمكن أن يكون ، ومن يقول ذلك فهو ظالمٌ للأديان كلّها ، الدين الصحيح الرشيد القويم جزء من الحل دائمًا ، فالأديانُ رحمة ، والأديانُ سماحة ، والأديانُ هداية ، والأديانُ بناءٌ لا هدم فيه ؛ إنما المشكلة في المتاجرين بالدين وعلينا كشفهم وبيان أمرهم والتصدي لهم ، وفِي الذين لا يحسنون فهم الدين الحقيقي ، وعلينا بالحكمة والموعظة الحسنة بذل الجهد لتعليمهم ، ومن ثمة فإنه يجب على علماء الدين المخلصين بيان صحيح الدّين ، وردّ الناس إليه ردًّا جميلا ، لا عنف فيه ، ولا إكراه ، ولا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غُلُوّ ، ولا تقصير .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام :

إن التدين الحقيقي يعصم صاحبه من الزلل ، لأنه يدرك أن أعماله تُحصى عليه ، وأنه سيقف بين يدي الله (عز وجل) الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، يقول سبحانه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، ويقول سبحانه على لسان سيدنا لقمان (عليه السلام) في وصيته لابنه : { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}.

والعاقل هو من حاسب نفسه على كل ما يصدر منه ، وأدرك بعين البصيرة أنه لا ينجيه من حساب الله في الآخرة إلا لزوم ودوام المحاسبة لنفسه ، وصدق المراقبة لله (عز وجل) في الدنيا ، فمن حاسب نفسه في الدنيا ، خف يوم القيامة حسابُه، وثقل ميزانه ، ومن أهمل المحاسبة ربما دامت حسراته ، وخاب وخسر ، وكان سيدنا عمر (رضي الله عنه) يقول: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَئِذٍ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا).

والناس في محاسبتهم لأنفسهم على أحوال مختلفة ، فمن الناس من يحاسب نفسه كل لحظة ، ومنهم من يحاسبها كل يوم وليلة ، ومنهم من يحاسبها كل عام ، ومنهم من لا يحاسب نفسه حتى يجدها موقوفة للحساب ، ولا شك أننا في نهاية عام وبداية عام جديد لا بد وأن تكون لنا وقفة محاسبة مع النفس، فما الدنيا بأسرها إلا كسوق امتلأ ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر ، والسعيد العاقل من وعظ بغيره ، والشقي الأحمق من لا يوعظ إلا بنفسه .

غير أن بعض الناس قد لا يفطن إلى جوهر المحاسبة وكيفيتها ، فيظن أن محاسبة النفس تقف عند أداء الشعائر والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج فحسب، أو حتى مجرد اجتناب الكبائر ، غير أن بعضهم قد يغفل عن محاسبة نفسه عن مدى إتقانه للعمل ، أو إهماله فيه وتفلته منه ، وقد لا يحاسبها على كل ما اكتسبه أو حصله من مال ومدى حله أو حرمته ، أو احتمال وقوعه في الشبهات التي حذرنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) من الوقوع فيها ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبَهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ، اسْتَبْرَأَ لِدِينهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لكُلّ مَلِكٍ حِمَىً ، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ) ، وقد كان الصالحون يتركون بعض الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام ، وقال بعضهم : إنما سُمي المتقون متقين لأنهم اتقوا ما لا يتقيه غيرهم .

وقد لا يحاسب الإنسان نفسه على تجبرها ، أو تكبرها ، أو استعلائها ، أو جورها ، أو تقصيرها في حق اليتيم والضعيف والمسكين والمحتاج ، وقد لا يحاسبها على عدم الوفاء بالحقوق الخاصة والعامة ، وقد لا يحاسبها على عدم أداء واجباتها المجتمعية والوطنية ، وقد لا يحاسبها على كل لحظة وكل نفس خرج ، سواء أكان في خير أم في شر ، وقد لا يدرك كامل الإدراك أن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ، حيث يقول الحق سبحانه : {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، وإن أدرك ربما تناسى أو تغافل .

اللهم إنا نعوذ بك من الغفلة
ونسألك أن تعيننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك